﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠﴾ [الفجر: 15 - 20]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من بيان أسباب هلاك السّابقين إلى وجود الأسباب في المخاطَبين

لمّا بيّنتِ الآياتُ السّابقة طغيانَ الأقوامِ السّابقين وإفسادَهم في الأرض بسبب سوء اعتقادهم، وفسادِ تدبيرهم، وشَرِّ أعمالِهم، وأنَّ ما كانوا عليه من ذلك كلِّه أوقعهم في الهلاك الماحق؛ ناسبَ الانتقالُ إلى بيان واقع الإنسان في حال الرّخاء التي تقوده إلى الطّغيان، وحالِ الشّدّة التي تقوده إلى اليأس والضّجر، فهما حالان يتواردان على عموم النّاس فيقعون في مزالق الشّيطان، وفائدةُ المناسبة بيانُ ما أوقع الأممَ السّابقةَ في الطّغيان، ليَحْذرَ المخاطَبون ما وقع به السّابقون، من التّرف والشَّرَه والبَطر، وظنّوا أنّهم مستحقّون لذلك، وأنَّ ما هم فيه لكمالٍ فيهم، ونقصٍ في غيرهم، وذكرتِ الآياتُ علامةَ ذلك الطّغيان في عدم إكرام اليتيم، وتركِ الحَضِّ على إطعام المسكين، والظّلم في أكل الأموال، فكان كلُّ ذلك مَلهاةً عن الحقِّ المقصود، وإغفالًا عن العمل المطلوب، فهو انتقالٌ من بيان أسباب إهلاك السّابقين إلى وجود أسباب هلاك المُخاطَبين، للحَذر من الإصرار والعِناد.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾: أصلُ الكرَم يدلُّ على الشّرف في الشّيء،

وكلّ شيءٍ شَرُفَ في بابِه فإنَّه يوصَفُ بالكَرَم[1]. ومن الشّرفِ العطاءُ بكثرة، ويقالُ: كَرُم السّحابُ إذا كثُرَ ماؤه وجادَ به[2]، والكَرَمُ إذا وُصِفَ اللّه تعالى به فهو اسمٌ لإحسانِه وإنعامِه المتظاهِرِ، والكرمُ لا يُقالُ إلّا في المحاسِنِ الكبيرةِ الظّاهرةِ، والإكْرامُ والتَّكْريمُ أن يوصَلَ إلى الإنسانِ نفعٌ لا يلحقه فيه غَضاضَةٌ، والإكرامُ يقتضي التّفضيل. ومعنى ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾: أعطاه وجادَ عليه بالخيرِ.

2) ﴿فَقَدَرَ﴾: لفظ القَدَر يدلُّ في أصلِه على مبلغِ كلِّ شيءٍ ونهايتِه[3]، والقَدْرُ والتَّقْديرُ: تبيين كَميّةِ الشّيء[4]، ومنه جاء القدْر بمعنى التَّضييق وقِلَّة الشّيء؛ لأنَّ الشّيءَ القليل تتبيَّن كميّتَه، وقُدِرَ عليه في الرّزقِ، أي: أُعْطيَ ذلك بقَدْرٍ يسيرٍ[5]، ومعنى ﴿فَقَدَرَ﴾: ضَيَّق، أي: لم يُكثِر مالَه، ولم يوسِّع عليه[6].

3) ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾: أصلُ الحضِّ يدلُّ على البَعثِ على الشّيءِ والدّفع إليه بضغطٍ مع الرّغبة فيه، والحَضُّ: الحَثُّ على الخَيْر[7]، ويُقال: حَضَضتُك على الخير حَضًّا رغّبتُك فيه[8]، والتَّحاضُّ: التّحاثُّ، بأن يَحثَّ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه[9]، ومعنى ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾: لا يحضُّ بعضُكم بعضًا، وأصله تتحاضّون بتاءين؛ فحُذفت إحدى التّاءين تخفيفًا.

4) ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾: أصل التّراث وِراث، قُلِبَت الواوُ تاءً. فهو من بابِ ورثَ[10]، والميراثُ: أن يَكونَ الشَّيْءُ لِقَوْمٍ ثُمَّ يَصيرَ إلَى آخَرينَ بنَسَبٍ أوْ سَبَبٍ[11]. واستُعمل فيما بعد بما ينتقل عن الميّت من مالٍ وغيرِه إلى إنسانٍ آخر[12]، والوراثة بمعنى حوزِ تركةِ الميت أو قسطٍ منها[13]، ومعنى ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ الميراث.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (كرم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (كرم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).
(4) الرّاغب، المفردات: (قدر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قدر).
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 412.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حض).
(8) ابن القطّاع، الأفعال: 1/ 248.
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (حضض).
(10) الرّاغب، المفردات: (ترث).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ورث).
(12) الرّاغب، المفردات: (ورث).
(13) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ورث).

5) ﴿لَّمًّا﴾: اللَّمُّ الجمعُ الشّديد، ويدور اللّفظ على اجتماعِ الشّيءِ وضَمِّه[1]. وأصله من اللّمّة: وهي شَعر الرَّأس إذا كانَ فوقَ الوَفْرة[2]. ويقال: لَمتُ الطّعامَ لَمًّا: إذا أكَلْته جَميعًا. ولمتُ الشّيءَ إذا جمعتَه وأتيتَ على آخرِه[3]. ومعنى ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾: يأكلُ الميراثَ جميعَه ويستأْصِلُه، فيأكلُ نصيبَه ونصيب غيرِه.

6) ﴿جَمًّا﴾: يدور أصل كلمة (جَمَم) على كثرةِ الشّيءِ واجتماعِه[4]، وهو من جَمَّة الماء، أي: معظمه ومجتمعه الذي جُمَّ فيه الماءُ عن السَّيَلانِ، والجَمُّ والجَمَمُ: الكثيرُ مِن كُلِّ شيءٍ. ومالٌ جَمٌّ: كَثيرٌ، ولاعتبارِ معنى الكثرة قيل: الجُمَّة، لِما اجتمعَ من شعرِ النّاصيةِ. ومعنى ﴿حُبًّا جَمًّا﴾: حُبًّا كثيرًا[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إكـرام الإنسـان هـو بتـوفيـقـه للإيمان والعمل الصّالح لا بكثرة الأموال

تُخبِرُ الآياتُ الكريمة عن حالِ الإنسانِ في حالِ العُسرِ واليُسرِ، والفقرِ والغنى، فالإنسانُ إذا ما امتحَنَه ربُّه بالنِّعمِ والغِنَى فأكْرَمَهُ بالمال، ونَعَّمَهُ بما أوسع عليه من فضله، فرح بذلك وسُرَّ به، ويقول: ربّي فضّلني بما أعطاني، وأكرمني بهذه الكرامة؛ لظنِّه أنَّ ما أعطاه اللّه من هذه الدّنيا كرامةً له، وأمّا إذا ما امتحنه ربُّه بالفقر، فضيَّق عليه رزقَه وأعطاه قدرَ ما يكفيه، فيقول الإنسان: ربّي أذلَّني بالفقر، ثمَّ جاء الرّدُّ بالرّدع والزّجر على مَنْ توهّم أنَّ سعة الرّزق من إكرام اللّه له، وأنَّ الفقر إهانةٌ له، فوجّه أنظارَهم إلى أنَّ الإهانة هي في عدم إكرام اليتيم، وعدمِ الحَضّ على طعام المسكين، وأكلِ الميراث أكلًا شديدًا بحيثُ لا يترك النّاسُ منه شيئًا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لمَّ).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لمم).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 527.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جمم).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جمم).

فيأكلون نصيبَهم ونصيبَ غيرِهم، ويحبّون المالَ وجمعَه واقتناءَه حبًّا كثيرًا شديدًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الفاء ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ تفريعيَّة، فلمّا كانت جملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ على معنى العموم والتّذييل، وأفادت أنَّ هذا شأنُ ربِّك الجاري على وفقِ عِلمِه وحُكمِه، فأمّا الإنسان الكافر فيتوهّم خلافَ ذلك، إذ يَحسَبُ ما يَنالُه من نِعمةٍ وسَعةٍ في الدُّنيا تَكريمًا من الله له، وما يَنالُه من ضيقِ عَيشٍ إهانةً أهانَه الله بها، وهذا التَّوهُّمُ يَستلزِمُ ظَنَّهم أفعالَ الله تعالَى جاريةً على غيرِ حِكمةٍ، والقصدُ منه إبطالُ ما كان يعتقده أهلُ الشّرك ممّا ينزل بهم من أحوال الغنى والفقر، وفي هذا التّفصيل إيذانٌ من الله تعالى للمؤمنين بأنَّ أعراضَ الدّنيا زائلةٌ ومتفاوتة في الطّولِ والقِصَر[2].

رحمةُ الله بعبادِه في أن يدلّهم على الخير، وظلمُهم لأنفسهم في الإعراض عن رحمته

دلالة (أمّا) التّفصيليَّة الرّابطة:

(أمّا) تُفيد التَّفصيل مع تأكيد مضمونِ ما دخلت عليه؛ لِما يفيده تفصيلُ الكلام من اهتمامِ المتكلِّم بما يفصِّله، على أنَّ مضمونَه محقَّقٌ، وهي بمعنى: مهما يكن من شيءٍ، فتقتضي جوابًا لسؤالٍ مُقدَّر، كأنَّه قيل: فما بالُ الإنسانِ وحالُه إذا كان مرادُ الله السّعيَ إلى الآخرة والعملَ لها؟ فأُجيب: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: إنَّ الإنسانَ عكسُ ذلك؛ إذ سعى للدّنيا وأفنى عُمُرَه في لذّاتِها[3]، وقد أفادت عمومَ ما دخلت عليه، وتكون رابطةً لِما قبلها بما بعدَها؛ ولهذا جاء قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ بعد الجملة التّذييليَّة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾

الناسُ بحسب أعمالهم وإيمانهم بالله يَرجِع أمرُهم إلى الشّكر أو الكُفر

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 412 - 415، والبغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 251 - 252.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 325.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 257.

الدّالَّة على العموم والإجمال، وبمجموعِ هذه المعاني التي تدلُّ عليها (أمّا) تظهر بلاغةُ النّظم في إيثار التّعبير بقولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ دون: (فالإنسان إذا ما ابتلاه ربُّه يقول ربّي أكرمن). فأفادت (أمّا) تفصيلَ ما أُجملَ قبلَها[1].

أقوال الإنسان الجاهل تابعةٌ لحاله في الشّدّة والرّخاء

وقد ذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ المُفصَّلَ هنا أحوالُ الإنسانِ الجاهلِ، فُصِّلتْ إلى حالِه في الدّعة وسعةِ العيشِ، وحالِه في الضّنكِ وشدّة العيش، وهذا التَّفصيلُ ليسَ من قبيلِ تبيينِ مجمَلٍ تقدَّمَ، ولكنَّه تمييزٌ وفصلٌ بَيْنَ شَيْئَيْنِ أوْ أشْياءَ تَشْتَبِهُ أو تَخْتَلِطُ[2]. وأفادت (أمّا) الرّابطة التّفصيليَّة الإيذانَ بالبونِ بين الحالين والأمرين المتنافيين، وذلك أنَّه تعالى يطلب من العباد الطّاعة والعبادة، وهو بالمِرصاد كالمترقّب الذي لا يفوته شيءٌ من أعمال عباده، فيحاسبهم على النّقير والقطمير ويُجازيهم عليها، والإنسان غافلٌ مولَعٌ بالتَّلهّي، ومنغمسٌ في أمور العاجلة، إنْ أصابه نصيبٌ من الدُّنيا اطمأنَّ إليه، وإنْ جاوزه حظٌّ منها ضجرَ وقنطَ[3].

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ لاستغراق جميع الأفراد، وهو استغراقٌ عرفيٌّ بقرينة السّياق والسّباق، فيُراد به الإنسانُ المشرك الجاحد ليوم القيامة[4].

نُكْتَة اختيارِ مفردة ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ دونَ مقارباتها:

استُعمل لفظُ الإنسان في غالب القرآن في سياق الذّمّ لا المدح

جاء التّعبير بمفردة ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾؛ للإشعار بأنَّ التّكريم والإهانة إنّما يقعان على الشّخص بوصفِ إنسانيَّته، لا بوصفِ كونِه من قبيلةٍ

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 16/ 1555.
(2) القنوجيّ، فتح البيان: 15/ 226، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 329.
(3) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 16/ 426.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 156.

معيَّنةٍ أو من قومٍ معيّنين، وأنَّ القول المَحكيَّ في حالةِ التّوسعة في الرّزق أو تضييقه هو عادة الإنسانِ يظهره أو يبطنه، وأنَّ هذا هو شأنُه، وإنّما يُهذّبه الإيمانُ، والغالبُ في إطلاق لفظ الإنسانِ في القرآن المَكّيّ المُشرك، كقولِه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ [القيامة: 3]، ومن يظنُّ هذا الظّنَّ هو الكافر. ومثلُه قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ [البَلَد: 4 - 5][1]. والاستدلال بكثرة المال أو قلّتِه على إكرامِ اللّه وتفضيلِه، أو إهانتِه وإذلالِه، موجودٌ عند كثير من أهلِ الإسلامِ، وهو مذموم، كما هو ظاهر، بل هو مضارعةٌ لمن لم يؤمن.

فائدةُ تقديم الظّرف ﴿إِذَا﴾:

التّنبيه على أنَّ الإنسان سريعُ الحُكم بطريق الهوى

قُدِّمَ الظّرفُ ﴿إِذَا﴾ عن موضعِه لأنَّه على نيَّة التَّأخير لتعلُّقِه بالفعل (يَقولُ)، كأنَّه قيلَ: فأمّا الإنسانُ فيقولُ: ربي أكرمني وقتَ ابتلائِه بالإنعامِ، والغرضُ من تقديمِه الإيذانُ من أوّل الأمرِ بأنَّ الإكرامَ والتّنعيمَ إنّما هما بطريق الابتلاءِ؛ ليتضحَ اختلالُ قولِه المحكيِّ: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾[2]، كما يُشير تقديمُ الظّرفِ إلى أنَّ الإنسان لم يتدبّر قبلَ قولِه الذي يقوله، ولو تدبّر من أوّل الأمر في أنَّه ابتلاء واختبار لَما توهّم في ظنِّه أنَّ كثرة ما هو عليه من المالِ والتّنعّم من كرامتِه عند اللّه.

نوع ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

تأكيدُ وقوعِ الابتلاء بالتّوسعة في أمور الدّنيا والتنعّم بها أو في التّضييق

أفادت ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ التّأكيدَ، ففيه إشعار بتأكيد وقوعِ الابتلاء بالتّوسعة في أمور الدّنيا والتنعّم بها أو في التّضييق بها بحيثُ يكون للإنسانِ ما يكفي بلغتَه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 329.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 156.

بلاغة استعمال مفردة ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ دون مقارباتها:

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ دون مقارباتها؛ وذلك لأنَّ الابتلاء هو الاختبار من الله تعالى بالأمر الشّاقِّ سواءٌ أكان في السّراءِ أم في الضّراءِ؛ ليتبيَّن صاحبُ الابتلاء حالَه، والابتلاء مشعرٌ بترتّب أثرٍ له، وهو الجزاء على العملِ؛ وأمّا الفتنة فهي أخصُّ من الابتلاء؛ لأنَّها تجمع معنى الخوفِ والاضطرابِ، وتتضمّن خطر السّقوط في الضّلالِ والهاوية، فيُعبَّر بالابتلاء في معرض الاختبار بأمرٍ شاقٍّ والاجتهاد في تحصيل الأفضل؛ ليتميَّز كلُّ فريقٍ ممّا يترتّب عليه جزاؤهم بما يستحقّون، ويُعبّر بالفتنة في معرضِ اختبار قوّة الصّبر والثّباتِ على الحقِّ، والتّخويف من الوقوع في الزّلل.

الابتلاء اختبارٌ بأمرٍ شاقٍّ لتحصيل الغاية الفُضلى والمطلوبِ الأحسن

وممّا يدلُّ على أنَّ ورود لفظِ الابتلاء والبَلوى للإيذانِ باختيار الأفضل في الاختبار قولُه تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: 2]، ومنه قولُه: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ [النّساء: 6]؛ لأنَّ المقصود اختبار كمالِ عقولِ اليتامى، ومعرفةُ وصولِهم إلى الأفضل في رجاحة العقل؛ لتسليمهم أموالَهم وتصرّفهم فيها.

بلاغة الاستعارة في مفردة الابتلاء:

في لفظ ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة، فقد شَبَّه اختبارَ حالِ الإنسان وما يقولُه عند كثرة الرّزق أو قِلَّته باختبار المختبِر ليعلَم أحوالَ من يختبرهم ويُعرِّفَهم أحوالَهم، أي: جودتَهم أو رداءتهم، والمقصود أن يَعرِفَ صاحبُ الابتلاء حالَه؛ لأنَّ الله تعالى يعلم حالَه وما يكون عليه.

عِلْمُ الله بحال من يبتليه لا يمنع الابتلاءَ ليُعرِّفَه حالَه

ويحتمل أن يكون قولُه: ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ استعارةً تمثيليَّة[1]، بتمثيل

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 258.

حالة تعريف الإنسانِ حالَه من الشّكر أو الكفر بحالة المختبرِ له، والمقصود عامَلَه معاملةَ المُختبرين.

نُكْتَة التّعبير بصيغة الماضي:

ابتلاء الإنسان بالخير أو الشّرّ أمرٌ محقَّقُ الوقوعِ وإن تأخّر حينُه

لمّا كانت ﴿إِذَا﴾ لِما يستقبل من الزّمان؛ كان الظّاهر أن يُعبَّر بصيغة المضارع الدّالِّ على الاستقبال، لكنَّه عدل إلى صيغة الماضي في قوله: ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ﴾؛ ليكون الكلامُ على خلاف مقتضى الظّاهر؛ للإشعار بأنَّ الابتلاء محقّقُ الوقوع، وأنَّه واقعٌ لا محالةَ في المستقبل، وحكمُه حكمُ الواقع في الماضي؛ لما تقدَّم من أنَّ (لَمّا) تفيد أنَّ مضمونَ ما دخلت عليه محقَّق الوقوع.

نُكْتَةُ التّعبير بعنوان الرّبوبيّة:

جاء التّعبير بعنوانِ الرّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾؛ للإشعار بأنَّ هذا الابتلاء نوعٌ من تربية الله للإنسانِ، وأنَّه يريد من عباده الأحسنَ، وأن يكون سعيهم إلى الشّكر والطّاعة.

نوع الفاء ودلالتُها:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ تفسيريّةٌ، فإنَّ الإكرامَ والتّنعيمَ من الابتلاءِ[1]، وهي لا تمنع أن يعمل ما بعدَها فيما قبلها، والتّقدير: يقول ربّي أكرمنِ إذا ما ابتلاه ربّه فأكرمَه ونعّمه.

توجيه استعمال الإكرام دونَ الرّزق:

الإكرامُ يدلُّ على العطاء النّافع والشّرف والرّفعة

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الإكرام دونَ الرّزق، فقال: ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾، ولم يقل: (فرزقه)؛ لأنَّ الرّزق إكرامٌ، وهو إعطاء ما هو مكرمة ممّا هو نفعٌ لا غضاضةَ فيه ولا مذلّة، كما أنَّ تقديم النّفع والخيرِ إكرامٌ، وما يحصل بالخير من الرّفعة والشّرف والسّيادة إكرامٌ كذلك، ولو عبّر بالرّزق لَما تحقّق هذا المعنى، ولهذا قال تعالى:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 156، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 340.

﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾ أي: أعطاه وتفضّل عليه بالعطاء، ثمَّ قال: ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾؛ للإشعارِ بمعنى التّشريف والسّيادة بهذا الإكرام، أي: فيكون بالإعطاء شريفًا.

نُكْتَة التّعبير بصيغة الماضي:

أفاد التّعبيرُ بصيغة الماضي ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾ تحقّقَ وقوعِ الإكرام، وسببُ مجيءِ الفعل بصيغة الماضي هو أنَّه جاء مع ما عُطفَ عليه تفسيرًا للفعل ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ﴾.

نُكْتَة عطف (نَعَّمَهُ) على ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾:

ليس كلُّ مرزوقٍ منعَّمًا بالعطاء الجزيل

لمّا كان العطفُ يقتضي المغايرةَ بين المعطوفين، أفاد عطفُ (نَعَّمَهُ) على ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾ مغايرةَ التّنعيم للإكرام، والمعنى: جعله في نعمةٍ، أي: في طيب عيشٍ[1]، ففيه مبالغةٌ في الإكرام، فقد يُعطى الإنسانُ العطاءَ الجزيل لكنَّه لا يُنَعّم به ولا يَطيب عيشُه به، فكان العطف لمزيدِ بيان الحال التي يصلها الإنسانُ المُكرم.

فائدة صيغة التّضعيف:

تكرار الإكرامِ تنعيمٌ كثير وفضلٌ زائد

أفادت صيغةُ تضعيف عين فعل (نَعَّمَهُ) تكثيرَ الفعلِ، بمعنى تكثير تنعيمِه والمبالغة فيه، المقتضي تعدّدَ النّعمِ ومجيئها مرَّة بعد مرَّة، وفي التّعبير بالصّيغة إيماءٌ إلى أنَّه لكثرة تنعيمِه وظهور أثر النّعمةِ صار منسوبًا إلى أصلِ الفعلِ؛ لدلالة صيغة (فعّل) على النّسبة إلى أصل الفعل، ولظهور الإكرام والمبالغة في التّنعيم يُقرُّ به ويقول: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾، ولو قيل: (وأنعم عليه) فاتت هذه المعاني المقصودة.

نوع الفاء ودلالتُها:

الفاء في قوله: ﴿فَيَقُولُ﴾ واقعةٌ في جواب الشّرط؛ لتضمن (أما)

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 330.

معنى الشّرط[1]، كما دلَّت على التّعقيب فبيّنت سرعةَ فرحِ الإنسانِ بالرّزق والإكرام والتّنعيم دونَ معرفةِ حقّ ذلك.

دلالة التّعبير بأسلوب الشّرطِ وجوابِه:

عـادةُ الإنسـان العَجلةُ في مدح العطايا فرحًا بما أخذ لا شُكرًا على ما أخذ

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ أسلوبِ الشّرط في قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ﴾، ولمّا كانت (أمّا) تُفيد العموم؛ لأنَّها بمعنى: مهما يكن من شيءٍ، أفاد عمومُ الشّرط عمومَ الجوابِ، ولمّا كان أسلوبُ الشّرط على معنى تعليقِ وقوعِ الجوابِ على وقوع الشّرط، وكان في سياق العموم، أفاد اطّرادَ قولِ الإنسانِ لهذه المقالةِ كلَّما حصلت له نعمةٌ، وكلَّما حصلَ له تقتيرٌ في الرّزق[2]. ففيه ذَمٌّ للإنسانِ الكافرِ، وبيانٌ لعادتِه في حياتِه، بأنّه إذا أُعطيَ من الرّزق رَضيَ، وإذا قُدِر عليه رِزْقُه سَخِطَ، وهي عادة المنافقين، كما قال تعالى: ﴿فَإِنۡ أُعۡطَوۡاْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ٥٨﴾ [التّوبة: 58].

دلالة تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

قُدِّم المسند إليه ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ على المسند الفعلي ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾[3]، لتقوية الحُكم وتأكيده؛ لأنَّ المقصود تحذير النّاس من هذه المقولة؛ لأنَّ الإكرام والتّقتير ممّا لا ينفكُّ عنه إنسانٌ.

فائدة التّعبير بصيغة المضارع:

جاء التّعبير بصيغة المضارع ﴿فَيَقُولُ﴾؛ لإفادةِ تكرّر القولِ وتجدّده كلَّما تحقّق مضمون الشّرط، والتّجدُّد بيانٌ للحال المستمرّة التي عليها الإنسان، فلا يلتفت إلّا لإشباع شهوته.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 475.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 330.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 310، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 473، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 258.

دلالة ذكر فعل (يَقُولُ):

إدانةُ الإنسانِ من فيه ورميُه بما خرج من فيه

لمّا كان الكلام في سياق ذَمِّ الإنسان على قولِه في الحالتَين، كان المرادُ من قولِه تعالى: ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ أنَّه يتكلَّمُ بمقولتِه هذه على جهة اعتقادِه أنَّه يستحقُّ الكرامةَ ويستوجبُها[1] وأنَّه أهلٌ لها، لا على جهة اعترافِه بها وشُكرِها، بل بما يظنُّه من مدحٍ لنفسِه، فهو فرِحٌ أشِرٌ لأنَّه يرى نفسَه مُستحِقّةً، لا أنَّ الله تعالى مُستَحِقٌّ للشّكر، وهذا في غاية الخُذلان، والتّعبير بفعل القول لتسجيل مقولةِ الإنسان، وإقامةِ الدّليل عليه.

دلالة الجملة الاسميّة:

جاء التّعبير بصيغة الجملة الاسميَّة ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾؛ للإشعار بأنَّه يقول قولَه على جهة اعتقاد ثبوتِ مضمونِ الجملة له، أي: ثبوت إكرامِ ربِّه له واستحقاقه له.

نُكْتَةُ استعمالِ عنوان الرّبوبيّة في جملة مَقول القول:

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بعنوان الرّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾؛ لبيان اعتقاد الإنسان أنَّ الإكرام من مقتضيات الرّبوبيّة التي يستحقُّها كمخلوقٍ لا كعابد لله تعالى.

دلالة إضافة وصف الرّبوبيَّة للضّمير:

أفاد إضافةُ لفظِ الرّبوبيَّة إلى الضّمير في قوله تعالى: ﴿رَبِّيٓ﴾ إلى أنَّ الإنسان يتوهّم أنَّ هذا الإكرامَ لخَصوصيَّةٍ له عند ربِّه، فهو ينتمي لربِّه دون إدراك ما عليه من الشّكر.

الكشفُ عن سوءِ اعتقاد الإنسان بما يعتقده عن حتمٍ أكيد

غرض تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

أفاد تقديم المسند إليه على المسند الفعليِّ في الجملة الفعليَّة ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾؛ لتقوية الحُكم في القول الصّادر عن الإنسان، فهو

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 474، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 259.

يقول جازمًا من غير تردّدٍ؛ إشعارًا بقوّة اعتقادِه فيه[1]، وفيه تعجيبٌ ممّن هذا شأنُه؛ لقصور عقلِه وسوء فكرِه؛ لأنَّه لم يعلم أنَّ هذا ابتلاءٌ من ربِّه ليَشْكرَه ولا يكفرَه.

نُكْتَةُ ذِكر الإكرام دون التّنعيم:

اعترافُ الإنسان بإكرام الله ناقصٌ غيرُ تامٍّ لحرصه على جاهه وإغفالِ حقِّ ربِّه

لمّا قال الله تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ كان مقتضى الظّاهر أنْ يقال: (ربّي أكرمني ونعّمنِ)؛ وذلك لبيان أنَّ اعتراف الإنسان بإكرام الله تعالى ناقصٌ غيرُ تامّ، فهو يَذْكر الإكرامَ ويُغفل التّنعيم، ولو قيل: نعّمني، لكان اعترافًا بأثر نعمةِ الله عليه، وهو مطلوب ومرغوب، فهو لكفرِه بالله وعدم شُكرِه له اكتفى بما يَدلُّ على شرفِه دون ما يدلُّ على أثر نعمة الله عليه.

وذهب بعضُ المفسّرين إلى القول بالاكتفاء، فلمّا كان الإكرام والتّنعيم في حُكم شيءٍ واحد، اقتصر على قوله: ﴿أَكْرَمَنِ﴾ ولم يَضُمّ إليه (ونعّمني)[2].

نوع الواو ودلالتُها:

الواو في قولِه: ﴿وَأَمَّآ إِذَا﴾ عطفت جملةَ الحالة الثّانية للإنسانِ على الحالةِ الأولى؛ لِما بينهما من الجهة الجامعة؛ لأنَّ الكلام في معرضِ التّفصيل، فاقتضى ذكر القسمِ الثّاني.

نوع (أمّا) ودلالتُها:

(أمّا) في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ﴾ تُفيد تأكيدَ مضمونِ ما دخلت عليه، لإتمامِ تفصيل الحالة الثّانية على أنَّها محقَّقةُ الوقوع من الإنسان الجاهل، وفيها معنى العموم كنظيرتِها.

نوع الفاء ودلالتُها:

الفاء في ﴿فَقَدَرَ﴾ تفسيريَّة، لبيان نوع الابتلاء، بمعنى أنَّ تقتير

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 330.

(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 357، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 340.

الرّزق وتضييقَه من الابتلاء، وتقدير الكلام: فيقول ربّي أهانني إذا ما ابتلاه ربُّه فقدر عليه رزقَه.

بلاغة استعمال مفردة (قدر) دون (ضيق):

تقتير الرّزق إنّما هو بحكمة الله تعالى وحُكْمِه في خَلْقِه

جاء التّعبير بمفردة (قَدَرَ) دونَ (ضَيَّقَ)؛ لِما تفيده مفردة (قَدَرَ) من أنَّه تعالى جعل رزقَه محدودًا بحسابٍ وقدَرٍ معيَّن على قَدَر حاجاته، أي: بقَدَرِ بُلْغته[1]، وذلك كنايةً عن تقتير الرّزق وتضييقه[2]. فأفادت مفردة (قَدَرَ) أنَّه تعالى جعلَ رزقَه على مِقدارٍ مخصوصٍ ووجهٍ مخصوصٍ، حسبما حكمَ به سبحانه واقتضته حكمتُه.

كما يُشعِرُ التّعبيرُ بالمفردة (قَدَرَ) أنَّه تعالى قدَّرَه على وجه لا يتأتّى منه غيرُ ما قدَّره فيه؛ إيماءً إلى أنَّه كان ينبغي له أن يصبر ويقول: ربّي قدَّره، لا أن يجزعَ ويقول: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾.

فائدة استعمال مفردة (قدر) دون (أهانن):

الكشفُ عن حقيقة إقرار الإنسان بأنّه جحودٌ ونكّار

في الجملة الأولى جاء توافقٌ بين الإخبار عن الإكرام وما قاله الإنسان، أمّا في هذه الجملة؛ فجاء اختلافٌ في التّعبير بين الخَبرين، فلم يقل: (إذا ما ابتلاه فأهانه)، وذلك أنَّ اللّه تعالى قَدَر عليه رزقَه ولم يُهنه، وفي قيله: (أهانن) كذبٌ وافتراء، ومع ذلك فقد أخبرتِ الآيةُ بقول الإنسان ليُعلَم مدى كفرِه وجُحوده، بخلاف الآية الأولى فجاء ذِكْر الإكرام خبرًا عن اللّه تعالى، وخبرًا عن إقرار الإنسان، لكنَّ إقراره ذاك ﴿أَكۡرَمَنِ﴾ كشفه إقرارُه ﴿أَهَٰنَنِ﴾، فهو يُقرُّ بما يُمليه عليه سلطانُ الهوى.

توجيه القراءات القرآنيّة:

قرأ الجمهور: ﴿فَقَدَرَ﴾ بتخفيف الدّال، وقرأ أبو جعفر وابن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 156.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 330.

عامر: ﴿فَقَدَّرَ﴾ بتشديدها[1]، والفرق بين القراءتين أنَّ قراءة التّشديد على معنى المبالغة في تقتير الرّزق وتضييقِه[2]، وإنّما صحَّ المعنى على تشديد عين الفعل وتخفيفِها؛ لأنَّ تقتير الرّزق من الكلّيِّ المشكّك[3]، فيتفاوت معنى التّقتير بدرجاتٍ متفاوتة في القوّة والشّدّة من إنسانٍ إلى آخر، ومن زمنٍ إلى آخر، ومن مكانٍ إلى مكانٍ آخر، فما يُعدُّ تقتيرًا في زمانٍ أو مكانٍ، قد يكون إكرامًا في زمانٍ أو مكانٍ آخر. ومثلُه الإكرامُ والتّنعيم في تفاوتِهما معناهما.

التّقتير والإكرام أمورٌ نسبيّة بحسب اختلاف الزّمان والمكان

غرض تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيْهِ﴾ على المفعول ﴿رِزْقَهُۥ﴾ لا للتّخصيص، بل لتحقيقِ أنَّ تقتير الرّزق مقصودٌ ومقدَّر على مَن قُدِّرَ عليه.

نوع الفاء ودلالتُها:

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ واقعةٌ في جواب الشّرطِ المضمّن في (أمّا)، وتُفيد التّعقيبَ والسّببيَّة وترتّبَ ما بعدَها على ما قبلها، بمعنى أنَّ قولَه هذا كان عَقِبَ وقوعِ تقتير الرّزق، فلم يتفكّر أو يتدبّر في حكمة الله، فقولُه كان بسبب ابتلائِه في تقتير الرّزق ومرتَّبًا عليه، فدلَّ على عدم نجاحِه في الابتلاء.

الإنسانُ الجَهولُ عند أدنى ابتلاء يقع منه الكفرُ والاتّهام

دلالة الجملة الاسميّة:

جاء التّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ للإشعار بأنَّه يعتقد ثبوت مضمون الجملة، ولا يظنُّ تبدَّل حالِه؛ جهلًا بالله تعالى، ومسارعةً في الإنكار والجُحود والاعتراض.

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 400.
(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 5/ 479.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 260.

نُكْتَةُ التّعبير بعنوان الرّبوبيّة:

سوءُ اعتقاد الإنسان وجهلُه يقودانه إلى الاستنكار والاعتراض على ربّه

آثَر النّظمُ الكريم ذِكرَ عنوانِ الرّبوبيَّة المضاف إلى ياء المتكلِّم في قيل الإنسانِ: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾؛ لبيان تناقضه في موقفه من الله ﷻ، فعند الرّزق والعطاء والإكرام والتّنعيم يُسند الإكرامَ إلى الله، وعند قَدْرِ الرّزق فيما له مصلحة فيه، يُسند فعلَ الإهانةِ إلى الله تعالى، فلا هو فقِهَ الإكرام، ولا عَلِمَ حِكمة التّقدير، وفيه إيماءٌ إلى سَخَطِه، وقُبحِ اعتقادِه، وشِدَّة شكيمته، وفَرْطِ طغيانه[1]، فهو يذكر الرّبوبيّة اعتراضًا وإنكارًا، كأنَّه يقول: كيف لربّي أن يُهينني؟! وهذا من قُبح المعتقد وانعدام الأدب وذهابِ الحياء.

دلالة استعمال مفردة ﴿أَهَٰنَنِ﴾:

التّعبير بمفردة ﴿أَهَٰنَنِ﴾ دون (أفقرني)؛ يُشعر بأنَّ جُلَّ نظر الإنسان الكافر يتّجه إلى توابع قلّة الرّزق، من العَوَزِ المانعِ من الاستكبارِ وإظهارِ البطَرِ، فهذا في مقياسه إهانةٌ وتحقير.

بلاغة التّعبير بذِكر القول دون وصف مضمونه:

تسجيل أقوال المعاندين أقومُ في بيان معتقدهم وأكثر دلالةً على المقصود

آثَر النّظمُ الكريم ذِكر قيلِ الإنسان دونَ وصفِ مشاعره؛ فقال تعالى: ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾، ولم يصف موقفَه بحيثُ يقول: (وأمّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقَه فإنَّه يجزع) ونحوه، وذلك ليُقيم الحُجّة عليه من قيله، وهذا شأن القرآن في إقامة الحُجَج على المعاندين، كما ذكر قول فرعون وما صدر عنه، وهو ما يُظهِر جَزَعَه وقِلّة حيلته وجهلَه، وما تدلّ عليه كلمتُه التي قالها، ولتصوير حقيقة ظنّه بأنَّ تقتيرَ رزقِه لم يكن من نفسِه وإنّما من ربِّه، فالمقصود التّعبيرُ عن سخطِه على ربِّه ﷻ؛ ولهذا جعل ربَّه هو الذي أهانَه بسبب تقتير رزقِه، جهلًا بالله تعالى وكفرًا به سبحانه.

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 259.

براعة مجيء أداة ﴿كَلَّآ﴾:

﴿كَلَّآ﴾ كلمة ردعٍ وزجرٍ، تأتي للرّدِّ على قولٍ تقدَّم، ومناطُ الرّدع ما صدر عن الإنسان في القولين؛ لأنَّ كلَّ قولٍ منهما صادرٌ عن تأوّلٍ باطلٍ، أي: ليست حالةُ الإنسانِ في هذه الحياةِ الدّنيا بالغنى أو الفقر دليلًا على منزلتِه عند الله تعالى[1]، فالرّدُّ بكلمة ﴿كَلَّآ﴾ لم يقع على المَقول، وإنّما على ما صوَّرَه بقولِه وقصده؛ وليس من لفظ يقع موقعه في هذا المقام سوى الرّدِّ بـ﴿كَلَّآ﴾؛ لأنَّه أفاد معنيين؛ أحدهما: أنَّ الأمر ليس كما صوَّره في نفسه وكما يظنُّ[2]، فيكون ردًّا لقولِه الصّادر عن اعتقادِه[3]، في أنَّ الكرامةَ والهَوانَ بكثرة الحظِّ في الدّنيا وسعة الرّزق فيها. والثّاني: أن يكون ردّا لصنيعه، لأنَّه إنّما قال مقالتَه نظرًا لبطرِه حالَ الإكرام، وجَزَعِه حالَ ضيقِ الرّزق، ففي كلمة الرّدع ﴿كَلَّآ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه تعالى لم يكرمه وينعّمه ليبطُرَ به ويتفاخَر، بل ليشكرَ، وقَدَرَ عليه رزقَه ليصبرَ[4].

ظنُّ الإنسانِ بالله القائم على بسط الرّزق وقبضه باطلٌ يستحقُّ صاحبُه ردعًا وزجرًا

نوع ﴿بَل﴾، ودلالتُها السّياقيّة:

﴿بَل﴾ للإضراب الانتقاليّ، وفائدتها الانتقالُ من غرضٍ إلى غرضٍ آخر من غيرِ إبطالٍ للكلامِ الذي سبقها، والمناسبة بين الغرضين المنتقَلِ منه والمنتقلِ إليه مناسبةُ التّرقّي في الكلامِ من ذِكرِ القبيح إلى الأقبح، لقصدِ بيانِ ما هو أسوءُ وأقبح من قولِهم المَحكيِّ، ويلزمه التّرقّي في ذمِّهم، ولمّا ذَكرَ ما بعدَ ﴿بَل﴾ ما كانوا يجتنبونه من الأفعال الحميدة وما كانوا يفعلونه من الأفعال السّيّئة؛ كان تقدير الكلام: بل لكم أحوالٌ وأفعالٌ أسوءُ من قولِكم المَحكيِّ، وأدلُّ على بُخلِكم وشُحّكم بالمال وتهالكِكم عليه، وعلى هذا

الإساءةُ الفعليّة مع العِبادِ أقبحُ من الإساءة القوليّة مع النّفس

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 331.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 323، والواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 510.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 479.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 330 - 331.

يُفيدُ الإضرابُ الانتقاليّ بـ﴿بَل﴾ التَّعجيبَ من حالِهم في ترقّيهم في السّوء[1].

بلاغة الالتفات من الغَيبة إلى الخطاب:

المواجهةُ بالتّوبيخ أدلُّ على تقريع الإنسانِ وإيقافِه على باطله

لمّا كان قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ غيبةً، وقولُه تعالى: ﴿لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ خِطابًا - على قراءة الجمهور كما سيأتي -، كان الكلام التفاتًا من الغيبة إلى الخِطاب، وفائدتُه الايذانُ بأنَّ ما يُخبرَ عنه أقبحُ من الأوّل وأشدُّ سوءًا، فالقصدُ من الالتفات المواجهةُ بالتّوبيخ، فهي أوقعُ وأكثر تأثيرًا ممّا يكون بالغيبةِ، وذلك لتشديدِ التّقريع وتأكيد التّشنيع[2].

توجيه القراءات القرآنيّة:

اجتماع على الإنسان الجاهلِ التَّوبيخُ بالمواجهةِ والتّبكيتُ بالإهمال

أما ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ فقد قرأه الكوفيون وأبو جعفر بفتح الحاء وألف بعدها، وقرأه البقية بضم الحاء دون ألف: ﴿تَحُضُّونَ﴾، وقد قرأ أبو عمرو ورُوَيْس ورَوْح بخلفه: ﴿يُكۡرِمُونَ﴾ و﴿يَحُضُّونَ﴾ و﴿وَيَأۡكُلُونَ﴾ و﴿وَيُحِبُّونَ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالتاء[3]، وقراءة ﴿يُكۡرِمُونَ﴾ وما بعدها من الأفعال بالياء تكون على الظّاهر من غير التفاتٍ من الغَيبة إلى الخِطاب، والقصد هو تعريفُ النّبيِّ ﷺ والمسلمين بحالِهم، فضحًا لدخائِلهم وما يبطنونه، على نحو قولِه تعالى: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۞ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٞ ۞﴾ [البَلَد: 6 - 7][4]. وعلى قراءة باقي العشرة ﴿تُكۡرِمُونَ﴾ وما بعدَها من الأفعال ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ و﴿وَتَأۡكُلُونَ﴾ و﴿وَتُحِبُّونَ﴾ بالتّاء تكون على الالتفات من الغَيبة إلى الخِطاب، للمواجهة بالتّوبيخ كما تقدَّم، والجامع بين القراءتين، هو أنَّ قراءة الخطاب مواجهة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 332.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 341، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 332.
(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 3/ 144، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 400.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 333.

بالتّوبيخ، وقراءة الغَيبة تبكيتٌ بالإهمال، فاجتمع على الإنسان معنيا الذّمِّ.

فائدة استعمال حرف النّفي ﴿لَّا﴾:

أفاد النّفي بحرف ﴿لَّا﴾ استمرارَ نفي إكرامِ المشركين لليتيم، واستمرارَ نفي التّحاضّ على إطعام المسكين، أي: هذا شأنُكم وحالُكم الدّائم، لا أنَّ له حالَين ومقامَين، إكرامًا وإهانة.

نُكْتَة التّعبير بصيغة المضارع:

جاء التّعبير بصيغة المضارع ﴿تُكۡرِمُونَ﴾ للإشعار باستمرارِ نفي إكرامِ المشركين اليتيمَ وتجدّده حالًا فحالًا، ووقتًا فوقتًا، فكلّما استجدّت أسباب الإكرام تجدّد معها تركُ إكرامه.

بلاغة الإيماء في نفي الإكرام عن الأمر بالإكرام:

توبيخُ تاركِ إكرامِ اليتيم أمرٌ بإكرامه وحضٌّ على إعانته

أفاد نفيُ إكرامِ المخاطَبين لليتيم في قوله تعالى: ﴿لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ على سبيل التّوبيخ والتّشنيع، الأمرَ بإكرامِ اليتيم بأسلوب التّلميح والإيماء، والنّكتةُ في عدم التّصريح بالأمر هو بيانُ أحوالِهم التي هم عليها وتقبيحُها، والإيذانُ بأنَّ هذهِ الأحوالَ والأفعالَ تستحقُّ العذابَ، وإنّما أمر القرآنُ بإكرامِ اليتيم؛ لأنَّه مَظنَّة الحاجةِ، لفقدِ مَن يعيله، ولعادةِ النّاس لاسيّما القريبين من اليتامى في الاستيلاء على الأموال التي يتركها الآباء لأبنائِهم الصّغار، وقد كانت الأموالُ في الجاهليَّة يتداولها رؤساءُ العائلات[1].

بلاغة التّعبير بمفردة الإكرام دون النّفقة أو الإطعام:

الواجب هو إكرام اليتيم المتضمّن للإنفاق والإطعام وغيرهما

جاء التّعبيرُ بنفي الإكرام في قولِه تعالى: ﴿لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ دون نفي الإنفاق، كأن يُقال: (كلّا بل لا تنفقون على اليتيم)، مع أنَّ أحد مقاصد الإكرامِ الإنفاقُ؛ وذلك للإشعارِ بأنَّه مستحِقٌّ للإكرامِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 333.

من كلِّ وجهٍ[1]، فالإنفاقُ عليه بوصفِ إكرامِه لا بوصفِ عدمِ إهانتِه، كي لا يكون ذليلًا حين يُنفَق عليه، فكم من منفَقٍ عليه يرى ألوانًا من الذُّلِّ، كما أنَّه لم يقل: (كلّا بل لا تُطعمون اليتيم)؛ لأنَّ المقصود هو الإكرامُ كما تقرّر، والإطعام قد يكون مقترنًا بمَذَلَّة من يُطعَمُ، كما أنَّ اليتيم له وصفان: فإمّا أن يكون غنيًّا أو فقيرًا، فإن كان غنيًّا فيُكرمُ ليُتمِه ولا يُطعَمُ لغِناه، وإن كان فقيرًا فإنَّه يُكرَم ليتمِه ويُطعَمُ لفقرِه، فلمّا قال: ﴿لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ على سبيل الإنكار؛ دلَّ على أنَّ اليتيم يُكرَم سواء أكان فقيرًا أم غنيًّا؛ فيختلف الإكرام ونوعه باختلاف الحالة التي يكون عليها اليتيم.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡيَتِيمَ﴾، ولطيفةُ إفراده:

من أهان يتيمًا فكأنّما أهان اليتامى جميعًا

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡيَتِيمَ﴾ للجنسِ، ويقتضي استغراقَ الأفراد، فالمعنى: لا تُكرمون اليتامى، واليتيم هو الذي ماتَ أبوه، سواءٌ أكان ذكرًا أم أنثى، ولمّا كان ﴿ٱلۡيَتِيمَ﴾ محمولًا على الجنس كان اللّفظ على معنى الجمعِ.

ولطيفةُ إيثار صيغة المفرد؛ فلم يقل: (بل لا تُكرمون اليتامى)، الإيماءُ إلى عدم إكرام اليتيم الواحد، فكيف بالجميع؟ وهي لطيفةٌ مأخوذةٌ من إفراد اللّفظ لا المعنى.

توجيه تخصيص إكرام اليتيم بالذّكر:

خصَّ النّظمُ الكريم إكرامَ اليتيم بالذّكر، وذلك لأنّه أحقُّ بالمرحمة؛ فمن لم يرحمْه ولم يكرمه لم يُكرِم غيرَه بطريق الأولويّة[2].

دلالة عطف نفي الحض على نفي الإكرام:

بيانُ شِدّةِ ابتعاد المشركين عن الفضائل

عطف النّظمُ الكريم نفيَ الحضّ على طعام المسكين في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾، على نفي إكرام

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 260.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 260.

اليتيم؛ وذلك للإشارةِ إلى أنَّهم لم يكتفوا بعدم إكرامِ اليتيم، بل زادوا عليه ممّا هو أقلُّ كُلفةً عليهم، وهو عدم حضِّهم على طعامِ المسكين، فالتّرتيب من ذكرِ الأشدِّ إلى ما دونه، لبيانِ شِدّة ابتعادِهم عن الفضائل.

بلاغة استعمال مفردة الحَضّ:

الكشف عن عمقِ الامتناع عن فعل الخير بين الجاهليين

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ للإشعارِ بأنَّه لِقلَّة الاكتراثِ بالمساكين لا ينفعونهم، ولو نفعَ وساطةٍ بأن يحضّوا غيرَهم على إطعامِهم، بلْهَ أن ينفعوهم بالبَذلِ من أموالِهم[1]، فكشفت المفردةُ عن عمق الامتناع عن فعل الخير في طبع أولئك المشركين، فهم لا يُطعمون فضلًا أن يحضّوا غيرهم على ذلك، خشيةَ أن يُؤمروا بالإطعام، فلا يأمر بالإطعام من لم يُطعم.

نُكْتَةُ التّعبير بصيغة المضارع ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾:

جاء التّعبير بصيغة المضارع ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾؛ للإشعار باستمرارِ نفي حضِّهم على طعامِ المسكين وتجدّده بتجدّد أوقاتِهم وأحوالِهم، فحالُهم الدّائمةُ هي تَركُ الحضّ على الإطعام.

دلالة التّعبير بصيغة التّفاعل ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾:

التّكافل الاجتماعيّ أصلٌ في المجتمع القويم، وتَركُه تركٌ لركن الفضائل

أفاد التّعبيرُ بصيغة التّفاعل ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ على أنَّ المراد أن يَحُضَّ بعضُهم بعضًا على إطعامِ المسكين، ففيه إشارةٌ إلى التّكافل الذي ينبغي أن يكون في المجتمع، ولمّا كان ضمير الجمع الواو في ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ يدخل فيه جميعُ المخاطَبين؛ أفادَ أنَّ التّحاضَّ على سبيل العموم، بمعنى: لا تحاضّون أنفسَكم ولا غيرَكم، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ الحَثَّ على طعامِ المسكين يكون بحثِّ النَّفس على إطعامِه أوّلًا ثمّ بحثِّ الآخَرين.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 333.

فَقْدُ النّصيحةِ الاجتماعيّة في المجتمعات طريقُ خرابِها وسبيلُ دمارها

توجيه القراءات القرآنيّة:

قرأ الكوفيّون وأبو جعفر ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ بفتح الحاء وألف بعدها، وقرأه البقية بضم الحاء دون ألف: ﴿تَحُضُّونَ﴾، وقرأ أبو عمرو ويعقوب بِخُلْفٍ رَوْح: ﴿يُكۡرِمُونَ﴾ و﴿يَحُضُّونَ﴾ و﴿وَيَأۡكُلُونَ﴾ و﴿ويُحِبُّونَ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالتاء[1]، ولكلٍّ قراءة وجه من المعنى، فقراءة ﴿يَحُضُّونَ﴾ لتعريف النّبيِّ ﷺ بدخائِل قلوبِهم وفضحِهم، وقراءة ﴿تَحُضُّونَ﴾ مِنْ حَضَّه على كذا، أي: أغْراه به، ولمّا كان الفعل (تَحُضّونَ) متعدّيًا في أصلِه كان في الآية على معنى حذف المفعول؛ وذلك لإفادة العموم[2]، والتّقدير: ولا تحضّون أحدًا على طعامِ المسكين، أي: لا يحضّون أنفسَهم ولا أهلَهم على طعامِ المسكين فضلًا عن غيرِهم، ويحتمل أن يكون حذف المفعول لتنزيل الفعل منزلةَ اللّازم[3]، فعدم حضِّهم على طعامِ المسكين صارَ وصفًا لازمًا لهم، مبالغةً في ذمِّهم وتوبيخِهم. وقراءة ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ حُذِف منها إحدى التّاءين تخفيفًا، فأصل اللّفظ (تتحاضّون)، والمعنى: لا يحضُّ بعضُكم بعضًا؛ ففيه إشارةٌ إلى التّكافل بالأمر بالمعروف، ومجموع القراءات يتّفق على إقرار حقيقةٍ عجيبةٍ وهي الامتناع عن الأمر بالمعروف الاجتماعيّ، في سدِّ فقر الفقراء، وإشباعِ عَوَزِ المساكين.

فائدة استعمال حرف الاستعلاء:

أفاد حرفُ الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ إلى أنَّ الحضَّ على طعامِ المسكين إنّما يكون على جهةِ الحرص على إيصال الطّعام إليه.

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 3/ 144، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 400.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 790.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 261، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 342.

بلاغة التّعبير بلفظ ﴿طَعَامِ﴾ دون (إطعام):

براعة الإيجاز في دلالة المذكور غير المتبادر على المحذوف المتبادر

الظّاهر أن يكون التّعبير بالإطعام لا الطّعام، وذلك أنّه وبّخهم على عدم المحاضّة، والحضُّ بين النّاس يكون حضًّا على الإطعام، ونُكْتَة ذلك الإيجاز، بحذف المصدر وهو الإطعام وذِكر الطّعام، والتّقدير: ولا يحاضّون على إطعام المسكين فيُقدِّمون طعام المسكين، فذُكِرَ غيرُ المتبادَر في الظّاهر، وحُذِفَ المتبادر في الظّاهر، ليدلّ المذكور على المحذوف، وهذا تفصيل أمتن من إطلاق القول بأنّه أراد من ﴿طَعَامِ﴾ اسم المصدر، مثل عطاءٍ بمعنى الإعطاء، فيكون بمعنى الإطعام، وصرَّح بالطّعام دون الإطعام؛ للإيماءِ إلى المأكول من الطّعام استعطافًا للمخاطَبين في الحثِّ على إيصالِ الطّعامِ إلى المسكين، فالطّعام هو النّتيجة، والإطعام هو المبدأ، فيكونُ قد قصد الأمرين باللّفظ الواحدِ، الإطعامَ وبذلَ الطّعام.

وذهب أبو حيّان إلى أنَّ الطّعام اسمٌ للمأكول وليس مصدرًا، وأنَّه بتقدير: ولا تحاضّون على بذل طعامِ المسكين[1]، فيَؤول المعنى إلى: ولا تحاضّون على إطعامِ المسكين ولا بذلِ طعامِه.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْمِسْكِينِ﴾، ولطيفةُ إفراده:

إذا تمكّن الشُّحُّ من نحرِ قومٍ أهلكهم

(أل) في ﴿ٱلْمِسْكِينِ﴾ للجنسِ، ويقتضي استغراقَ الأفراد، فيكون بمعنى المساكين، ونُكْتَة ذكر اللّفظ بصيغة الجنس دون أن يُقال: المساكين، الإشارة إلى شدّة بخلِهم وتهالكِهم على الدّنيا، وتكذيبِهم في ادّعائِهم البذلَ والكرم، فإنَّهم لا يحضّون على طعامِ مسكينٍ واحدٍ فضلًا عن المساكين، وهي لطيفة تتّجه إلى إفرادِ اللّفظ لا المعنى.

نُكْتَة ذِكر ﴿ٱلْمِسْكِينِ﴾ دون (الفقير):

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿ٱلْمِسْكِينِ﴾ دونَ الفقير في

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 475.

التّنبيه بالأوضح على الأخفى للمبالغة في توبيخ المخاطَبين

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾؛ وذلك أنَّ الفقير وإن كان أشدَّ احتياجًا من المسكين، إلّا أنَّ معرفةَ المسكين من هِندامه وهيئته ومسكنته أوضحُ من مظهر الفقير، والمجتمع الذي لا يتحرّك لظاهر المسكنة، من باب أولى أن لا يتحرّك للسّؤال عن المستورين من الفقراء، فاختيارُ لفظِ ﴿ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ دون (الفقير)؛ للتّنبيه بالأدنى على الأعلى؛ فيكون ذِكر المسكين للمبالغة في توبيخِهم.

دلالة إضافة لفظ ﴿طَعَامِ﴾ إلى ﴿ٱلۡمِسۡكِينِ﴾:

تعيينُ معنى الإضافة إنّما يكون بتعيين المقصود بصيغة المضاف

إن كان لفظُ ﴿طَعَامِ﴾ بمعنى المطعوم، أي: المأكول، فالإضافة في قوله: ﴿طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ على معنى الاستحقاق، أي: لا تحضّون على الطّعام الذي يستحقُّه المسكين، ففي إضافة الطّعام إلى المسكين إشارةٌ إلى أنَّ في مالِ الغنيِّ نصيبًا مختصًّا بالمسكين، ففيه إيماءٌ إلى أنَّه شريك للغنيّ في ماله بقدر الزَّكاة[1]. وإن كان لفظ ﴿طَعَامِ﴾ اسمَ مصدرٍ بمعنى الإطعام كانت الإضافة من إضافة المصدر إلى مفعولِه[2]، والتّقدير: ولا تحضّون على إطعامِ بعضِكم بعضًا المسكينَ، أي: على أن يُطعِمَ الأغنياءُ المسكينَ.

بلاغة فنّ الاحتباك:

احتياج اليتيم للإكرام أشدّ من الطّعام، واحتياج المسكين إلى الطّعام أكثر من اليتيم

في قوله تعالى: ﴿لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ احتباكٌ؛ لأنّه لمّا نُفيَ إكرامُهم اليتيمَ، وقوبِلَ بنفي أن يحضوا على طعام المسكين، عُلِمَ أنّهم لا يحضّون على إكرام أيتامهم، أي: لا يحضون أولياءَ الأيتام على ذلك، وعُلِم أنّهم لا يطعمون المساكين من أموالهم[3]، والتّقدير: كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على إطعامه، ولا تكرمون المسكين ولا تحاضون على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 35.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 333.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 333.

طعامه، ونُكْتَة ذِكر الإكرام في حقِّ اليتيم لاحتياجه إلى الإكرام أكثر من المسكين مع فقد الوالد أو الوالدين، ونُكْتَة ذِكر الحضّ على طعام المسكين لاحتياجه إلى الطّعام أكثرَ من الإكرام، فنبّه بالأهمّ في حقِّ كلٍّ منهما.

براعة ترتيب المعطوفات بالذّكر:

لمّا كان اليتيمُ والمسكينُ متّصفين بالضّعف؛ عطفَ عليهما ما هو من قبيلِهما فقال: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾، أي: وتأكلون ميراثَ الضّعفاء من النّساء والصّبيان ممّن لا يقدرون على المطالبة بحقِّهم ولا يستطيعون نيلَه، فإنَّ من يقول: لا يستحق المالَ إلا مَنْ يقاتلُ ويحمي الحَوزةَ؛ يأكل ميراثَ غيرِه من الضّعفاء، ففي عطف ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ إشارةٌ إلى اشتراكِ الثّلاثة في الضّعف، وأنَّ المخاطَبين المَذمومين بالخطاب إنّما كانت لهم الأحوالُ القبيحة والأفعالُ المشينة لشِدّة بُخلِهم ولتَكبُّرهم وتوهّمهم أنَّهم قادرون على منعِ حقوقِ الضّعفاء عنهم.

اجتماع المعطوفات في بيان أنَّ القويَّ المُستبدّ يأكلُ حقوقَ الضّعيف

دلالة استعمال مفردة (تَأْكُلونَ):

لمّا كان لفظ ﴿طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ يتناول ما المأكول؛ ناسبَ التّعبيرُ عن أخذِ حقّ الضّعفاء بلفظ (تَأْكُلونَ)، للإشارة إلى قُبحِ فعلِهم وخساسة صنيعهم؛ فبدلَ إطعامِ الضّعفاء أكلوا حقوقهم.

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿وَتَأۡكُلُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَتَأۡكُلُونَ﴾ شُبِّه أخذُ مالِ الوارثين والاستيلاء عليه على جهة الانتفاع منه بالأكل، بجامع حُبِّه له على سبيل الشّهوة والرّغبة وعدمِ إرجاعِه إليهم، بحيثُ لا يبقى منه شيءٌ كما هو حال المأكول لا يبقى منه شيءٌ، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعيَّة، ونُكْتَة الاستعارةِ الإيماءُ إلى أنَّ المأكول - وهو حقوق الضّعفاء - سيستقر في الأبدان، فرُجوعُه للضّعفاء مستحيلٌ، كما

الاستيلاءُ على حقوق الضّعفاء إذهابٌ له وتضييعٌ لا رجعة عنه

أنَّ فيه تذكيرًا لمن يستولي على أموالِ الوارثين ونصيبِهم بأنَّ ما يأخذه زائلٌ ذاهب.

نُكْتَةُ التّعبير بصيغة المضارع ﴿وَتَأْكُلُونَ﴾:

جاء التّعبير بصيغة المضارع ﴿وَتَأْكُلُونَ﴾؛ للإشعار باستمرارِ فعل القبيح بأخذ حقوق الضّعفاء، وتجدّدِ ذلك منهم كلّما وجدوا مهيعًا يسلكونه، مع تصوير قُبحِ واقعهم.

معنى تعريفِ لفظ ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ للجنسِ، وهو الميراث، وتحتمل أن تكون عِوضًا عن مضاف إليه محذوف، والتّقدير: تأكلون تراثَ النّساء والصّبيان والأيتام[1].

فائدة إيثار ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ على (المال):

آثَر النّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردةِ ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ دون (المال)؛ وذلك لأنَّ التّراث مالٌ له صاحب، فهو أخصُّ من عمومِ المال؛ ففي إيثار ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ إشعارٌ بسطوة آكل الحقِّ على الورثة[2].

دلالة المصدر ﴿أَكْلًا﴾:

جاءَ المصدر ﴿أَكْلًا﴾ تأكيدًا للفعل ﴿وَتَأْكُلُونَ﴾ وتقريرًا له، وليكون تمهيدًا إلى بيان نوعِ أكلِهم للميراثِ الذي هو محلُّ الذّمِّ، فإنَّ الذمَّ إنّما وقع على القيد وهو صفة المصدر.

بلاغة استعمال مفردة ﴿لَّمًّا﴾:

آثَر النّظمُ الكريم وصفَ الأكلِ بمفردة ﴿لَّمًّا﴾، وهو منشأُ الذّمِّ ومناطُه؛ في كونهم يأكلون التّراث أكلًا شديدًا، بحيثُ يستوعب الميراثَ ويأتي به على آخرِه، فلا يُبقي منه للوارثين شيئًا، أي: فيأكل

تصويرُ شدّةِ قُبحِ آكلِ التّراث فهو يأكلُ كلَّ ما يصله دونَ ترفُّعٍ

(1) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 348، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 261، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 333.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 334.

أكلًا جامعًا مالَ الوارثين إلى مالِ الآكلِ[1]، كما أشعرت المفردة أنَّه لَمَّه من هنا وهناك، وجمعَه ومنعَه عن الآخرين، كما يُلَمُّ الشّيءُ من عرضِ الطّريق من غيرِ كَدٍّ ولا جُهدٍ، ولاحقَّ لآخذه فيه، مع الدّلالة على حرصِه ونَهَمِه في الجمع، فيكون التّعبيرُ بمفردة اللّمِّ مُشْعِرًا بأنَّ الآكلَ اللَّمَّ هو الذي يأكلُ كلَّ شيءٍ يَجِدُه دونَ تورعٍ عن شيء.

فائدة عطفِ حُبِّ المال على أكل التُّراث:

بيان علّة أكلِ التُّراثِ وهو الشّغف بالمال

لمّا قال تعالى: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ عطفَ عليه ما يدلُّ على حرصِهم على اقتناء المال وجمعِه، فقال: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾، ففي ذِكر المعطوف إشارةٌ إلى سبب أكلِهم لميراثِ غيرِهم، وهو حُبُّهمُ المالَ حبًّا جمًّا، فهم يُقدِّمون حُبَّ المالِ على نُصرة الضّعفاء، وإعانةِ المساكين، والحفاظِ على أموال الأيتام، وهو ما يُصوِّر أخلاقَهم الذّميمةَ، وصفاتِهم الرّذيلةَ، التي يَفخرون بها على المكارم والفضائل.

نُكْتَةُ التّعبير بصيغة المضارع:

جاء التّعبير بصيغة المضارع ﴿وَتُحِبُّونَ﴾؛ للإشعار باستمرارِهم على حبِّ المالِ وتجدّده لديهم، فهم يُحبون المال حبًّا فطريًّا ومُكتسبًا، فجعلوا الحُبّ الفطريّ طاغيًا على كلِّ فضيلة.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡمَالَ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡمَالَ﴾ للجنس، فيدخل فيه كلُّ ما يُتموَّل ويسمَّى مالًا، من الذهب والفضة والأنعام بأنواعها، فكلُّ ما يُنتفع به في تحصيل متاع الدنيا فهو مال.

فائدة المصدر ﴿حُبّٗا﴾:

جاءَ المصدر ﴿حُبّٗا﴾ تأكيدًا للفعل (تُحِبّونَ)، وليكون تمهيدًا إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 334.

بيان نوعِ حبِّهم المالَ الذي هو محلُّ الذّمِّ ومنشؤه، فإنَّ التّوبيخ إنّما وقع على صفة المصدر.

بلاغة استعمال مفردة الجَمِّ:

لمّا كان الجَمُّ هو الشّيء الكثير المجتمعُ؛ أفادَ وصفُ حبِّهمُ المالَ بالجَمِّ في قولِه تعالى: ﴿حُبًّا جَمًّا﴾ الإشعارَ باجتماعِ كثرةِ حبِّهم له، ففيه معنى الحِرصِ والشّره والوَلَع في اقتناء المالِ واجتماعِه، ولمّا كان ﴿جَمًّا﴾ صفةً للمصدر ﴿حُبًّا﴾، دلَّ على تأكيدِ حبِّهم للمالِ وحِرصِهم عليه، واجتماعِ هذه المحبَّة عندهم، فكأنَّهم لا يُحبّون غيرَه، ولهذا كان حبُّهمُ المالَ حبًّا جمًّا هو منشأ التّوبيخ واللّوم والذّمِّ، فحُبُّ المالِ يدعو مُحبّيه لجَمعِه من شتاته ليَكْثُر، وهو مأخوذٌ من الجَمّة، وهي البئر التي قد جَمَّ ماؤُها بعد تنكيز، أي: قِلَّة[1]، وهذا شأنُ مُحبّي المالِ أنّهم يريدونه أن يكثر بعد قِلّة، وهو ما يدلّ على فقر النّفوس وقِلّة مالِها، فإذا تمكّنت من جمعه استطالت فأفسدت، وهو ما يكشف نفوسَ أولئك الفقراء في أخذ أموال الفقراء.

تصوير مُحبّي المالِ بأنّهم مسارعون إلى جمعه وتكثيره بعد قِلّته

بلاغة الكناية ودلالتُها:

في قولِه تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ كنايةٌ لطيفة؛ لأنَّ المقصود من وصفِهم بحبِّ المال أن يكون مع حرصٍ وشَرَهٍ، فيلزم منه اكتسابُه بالوسائل غيرِ الحقِّ، كالغصبِ والسّرقة والاختلاس وأكلِ الأمانات وأكلِ أموال اليتيم، وإلّا فمَحبَّةُ المالِ على وفقٍ شرعيٍّ غيرُ مذموم[2].

حبُّ المالِ ليس مذمومًا إلّا إذا خالفَ الشّرعَ وانتهكَ الحقوق

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الابتلاء والفتنة:

الابتلاء: هو الاختبار بالأمر الشّاقِّ، ويكون عامًّا، فقد يكون

(1) الخليل، العين: (جمّ).
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 262.

الابتلاء في الخيرِ وقد يكون في الشّرِّ؛ فيشملُ كلَّ ما يَختبِرُ به اللّه الإنسانَ، والمقصود منَ الابتلاء بيانُ حالِ المُبتلَى، ولمّا كان الابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان أشعر بترتُّب أثرٍ له، وهو الجزاء على العملِ.

الابتلاء يشملُ كلَّ ما يختبر به اللّه الإنسانَ، والفتنةُ أخصُّ لارتباطها بخطر الانحرافِ

وأمّا الفتنة: فهي أخصُّ من الابتلاء؛ لِما تتضمَّنُه من معنى الخوفِ والاضطرابِ، وترتبط بخطر السّقوط في الانحراف والهاوية والضّلال.

فيُعَبَّر بالابتلاء في سياقِ الاختبار بأمرٍ شاقٍّ، أو في سياق أمرٍ فيه خير، ويقصد منه الاجتهادُ في تحصيل الأفضل، ليكون ترتّبُ الجزاءِ مميِّزًا كلَّ فريقٍ بما استحقّه. وأمّا الفتنةُ فيُعَبَّر بها في معرضِ اختبار قوّةِ الصّبر والثّباتِ على الحقِّ. والتّخويف من الوقوع في الزّلل والخطرِ؛ ولهذا عبّر اللّه تعالى بالابتلاء دونَ الفتنة في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾.

القَدْرُ والتّضييق:

القَدْرُ: قِلَّة الشّيء، بحيثُ تتبيَّنُ كميَّتَه، فغايةُ الأمرِ في التّعبير بقوله: ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ أنَّه لم يوسِّع عليه رزقَه، وأنَّه أعطاه بُلْغتَه وعلى قَدْرِه، وقد يوصف الكريمُ بقَدْرِ المالِ على إنسانٍ ما.

القَدْرُ وصفٌ لقلّة الشّيء، والضّيق يستعملُ في الضّرر

وأمّا التّضييق: فهو من الضّيق، وهو خِلافُ السّعة، ويستعمل في الفقر وسوء الحالِ والبُخل[1]، ويَلزَمُه الضّجر، وفيه معنى الضّرر، ولهذا عبّر عن الضَّرَرِ بالضّيقِ. وقيل: مكانٌ ذو ضَرَرٍ أي: ضيقٍ[2]، ولا يعبَّر عن شيءٍ بالضّيق إلّا في سياق كراهته، سواء أكان في الضّيق الحِسّيّ الحقيقيّ كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾ [الفرقان: 13]، أو في الضّيق المعنويّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ضيق).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ضرر).

المجازيّ كما في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التّوبة: 118]، وقولِه: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ [هود: 77]، والتَضييقُ في الرّزق مذمومٌ لأنَّه يُفيد معنى البُخل، ولهذا لم يقلِ اللّه تعالى: فضَيَّقَ عليه رزقَه.

الحَضُّ والحَثُّ:

الحَضُّ أقوى من الحَثِّ؛ لأنَّ الحَضَّ هو الاندفاع بقوّة. وأمّا الحثُّ: فهو الإعْجالُ في اتِّصالٍ، فإذا كان التّرغيب في فعلٍ بقصدِ إتيانِه من غير إلحاحٍ قيل: حثَّه، وإذا كان مع إلحاحٍ، قيل: حضَّه، فالحضّ هو التّرغيب في فعلٍ مع إلحاح وشِدّة رغبةٍ في حصولِه.

الحَضُّ أقوى من الحَثِّ؛ فالحَضُّ هو التّرغيب في فعلٍ بقصدِ إتيانِه مع إلحاحٍ

وفرّق الخليلُ بين الحضِّ والحثِّ، فرأى أنَّ الحَثَّ يُستعمل في السّير والسَّوق، فيقال حثَّه على السّير إلى مكّة، وأمّا الحَضُّ فلا يكون في سَيرٍ وسوقٍ[1]، فيقال: حضَّه على فعلِ الخيرِ وحضَّه على إطعامِ المسكين. ولا يقال: حثَّه على إطعامِ المسكين.

الجَمُّ والكثير:

الجَمُّ: هو الشّيء الكثير المجتمع[2]. والكثير: يُعبّر به عن وفرة الشّيء وزيادتِه دون معنى الاجتماع، فقد يكون الشّيء كثيرًا غير مجتمعٍ[3].

الجمُّ هو الكثير المجتَمِع، والكثير وفْرةُ الشّيء دونَ شرط الاجتماع

ووصفُ حبِّ المالِ بالجَمِّ دونَ الكثير في قولِه: ﴿حُبّٗا جَمّٗا﴾ أفادَ اجتماعَ حبِّه الكثيرِ للمالِ، وحبِّهِ لاجتماعِ المالِ الكثير.

كما أنَّه لمّا كانت الكثرة لا تكون إلّا ما فيه عدد، والجَمُّ يكون في الكَمِّ - أي: العدد - وفي الكَيفِ؛ أفاد أنَّ حُبَّه الجَمَّ للمالِ في كثرة عدده وفي نفاسة نوعِه.

فالتّعبير بالجمِّ في سياق ذمِّ حبِّ المال أبلغُ من أن يقال: وتحبّون المالَ حبًّا كثيرًا.

---

(1) أبو موسى المدينيّ، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: 2/ 462.

(2) الرّاغب، المفردات: (جمَّ).

(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 253.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والستون،
سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والستون، سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 67 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-69-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 67 : المجلد السابع والستون، سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-69-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4934554 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"